الفصل الثالث

اللغة مسلك اجتماعي ذو نماذج

«كلِ سلوك ثقافى فهو سلوك ذو نماذج»[1]. والمقصود بالثقافة هنا المعنى الأعم الذى شرحناه فى مقدمة هذا الكتاب، أى أن الثقافة يقصد بها مجموع التركة التى يرثها جيل عن جيل من تقاليد وعادات ونظم معيشة ودين وفن ولغة وهلم جرا. والمقصود بكون السلوك الثقافى ذا نماذج أن الفرد حين يقوم بأداء هذا النوع من السلوك يفعل ذلك بطريقة معينة محددة اجتماعيا بواسطة العرف. فالذى يحيى عادة من العادات، أو تقليدًا من التقاليد، لا يفعل ذلك إلا إذا احتفظ بالطابع الأصلى، الذى بدا به هذا التقليد، أوتلك العادة، فيما مضى من الزمان. وهذا هو بالطابع الذى حدده الاستعمال والعرف الاجتماعى على مر الأجيال. والذى يتبع نظاما معينًا من نظم المعيشة سيرى أن مسالك هذا النظام محددة اجتماعيا بأصول وقواعد لا يمكن تجاهلها، والذى يقوم بأداء طقوس دين من الأديان يجد شكلية هذه الطقوس محددة كذلك. وكذلك يجد الفنان من أتباع أى فن شعبى معين، أن هذا الفن له أصوله المرعية وقواعده المتبعة، وهى أصول وقواعد محددة عرفيا ولا يمكن تخطيها.

ولعل اللغة من بين هذه المسالك الاجتماعية أكثرها إغراقا فى هذه الصبغة النموذجية. فهى المنظمة الاجتماعية الكبرى التى لا يمكن أن تؤدى وظيفتها إلا إذا تم تكامل أنظمتها والفصل من الناحية الشكلية بين كل وحدة وبين الأخرى من وحداتها المكونة لها. وسنرى أن طبيعة التنظيم فى تكوين اللغة تقتضى أن تكون المنظمة مكونة من أصوات، ثم من حروف، ثم من مقاطع، ثم من وحدات صرفية، ثم من صيغ وموازين صرفية، ثم من أبواب نحوية، ثم من كلمات، وكل ناحية من هذه النواحى يتكون منها نظام معين منسجم متكامل لا يتعارض جزء منه مع جزء آخر، وينبنى فهمه على أساسين منهجيين هما أولا: الشكل، وثانيا: الوظيفة. وقد شرحنا

(1) Selected Writings of Edward Sapir, p. 546.

هذه الأشكال وتلك الوظائف بالتفصيل فى كتاب «مناهج البحث فى اللغة»، فارجع إليه إن شئت.

ولكننا فى هذا الفصل من الكتاب لن نسمح لأنفسنا بأن نلج فى باب التفصيل على نحو ما فعلنا فى «مناهج البحث فى اللغة»؛ فذلك كتاب هدفه الأساسى بيان هذه المناهج وتطبيقها على اللغة العربية. أما فى هذا الفصل فهمنا أن نوضح أن اللغة مسلك اجتماعى، وأن هذا المسلك فى عمومه، له شكل وله وظيفة، وسننظر إلى هذا الشكل وتلك الوظيفة فى عمومها كذلك دون تفصيل. «فللغة طابع استثنائى إلى حد ما هو أن المعنى الوظيفى فى أشكال وحداتها غالبا ما يكون غير مباشر. فالأصوات والكلمات والصيغ الصرفية والتراكيب النحوية والأشكال اللغوية الأخرى التى نحذقها فى الطفولة لاقيمة لها إلا بمقدار ما يتعارف المجتمع عليها باعتبارها رموزا للدلالة»[1].

وإن مقارنة سريعة بين الصوت اللغوى، وبين الصوت غير اللغوى، من حيث طبيعة الأداء، ومن حيث الوظيفة لتبين لنا إلى أى حد تقع الأصوات اللغوية فى نماذج معينة. وسنجرى الموازنة هنا بين الصوت الشبيه بصوت الخاء الذى نستعمله فى تنظيف الحلق وبين صوت الخاء المستعمل فى اللغة، مقلدين فى ذلك ما فعله سابير[2] من الموازنة بين صوت (wh) كما ينطقه الأمريكيون وبين صوت النفخ لإطفاء الشمعة. والذى نلاحظة من هذه الموازنة يمكن أن نلخصه على النحو الآتى:

١- إذا نظرنا إلى عملية تنظيف الحلق وجدناها عملا عضويًا فرديًا مستقلا فى أداء وظيفته، وهو يتصل بهذه الوظيفة اتصالا مباشرًا. ومعنى ذلك أن ما نعلقه على هذا العمل من معنى نصل إليه بأداء هذا العمل منفردًا دون أن نضم إليه أعمالا أخرى. أما نطق صوت الخاء نطقًا لغويًا فإنما يكون بضم الخاء إلى غيرها من الأصوات فى صورة كلمة، فالخاء بمفردها لا تدل على معنى مباشر، وإنما هى جزء من شىء آخر له معنى مباشر.

٢- كل عملية من عمليات تنظيف الحلق بواسطة الصوت الشبيه بالخاء تشبه كل عملية أخرى ذات طابع مشابه من حيث القيمة والاستقلال، وإن اختلفت عنها فى

(1) Selected Writings of Edward Sapir, p. 549.

(2) Selected Writings, p. 33-35.

التفاصيل، وأما الخاء باعتبارها صوتا لغويا فقد سبق أن قلنا بعدم استقلالها، ونزيد هنا أن قيمتها فى المعنى تختلف من كلمة إلى أخرى.

٣- إذا صح أن كل استجابة إنسانية تقع فى نسق من الأمور المختلفة المترابطة، وأن هذه الأمور تدور حول معيار معين، فإننا لابد أن ننظر هنا إلى صوت تنظيف الحلق وإلى صوت الخاء باعتبارهما معيارين لنسقين مختلفين تمام الاختلاف. فتنظيف الحلق لايختلف إلا اختلافا طفيفًا من حيث طريقة إدائه، وهذا الاختلاف فى طريقة الأداء لا يصاحبه اختلاف فى الوظيفة، فقد تحدث الصوت الشبيه بالخاء فى أثناء تنظيف الحلق، وشفتاك مفتوحتان أو مضمومتان أو مكسورتان، ولكنك برغم هذا الاختلاف ستجد الوظيفة واحدة لهذه العملية فى كل الحالات. ولكن صوت الخاء فى كل موقع له فى الكلمة أو الجملة، يرتبط بتفصيلات دقيقة فى وصف أوضاع أعضاء النطق. وإن وضع الشفتين أثناء نطق الخاء ليرتبط بما إذا كانت الخاء مجاورة للفتحة أو للضمة أو للكسرة وهلم جرا. أضف إلى ذلك أن الفرق بين صوت تنظيف الحلق وبين صوت الخاء واضح من حيث القوة فى النطق، أى من حيث إحداث ضغط على المخرج بالهواء الخارج من الرئتين. وإن الوظيفه التى يؤديها صوت تنظيف الحلق لتتطلب أن نسلط ضغطا عظيما من هواء الرئتين على الجسم الغريب الذى فى مجرى هذا الهواء، حتى نجعل هذا الجسم ينخلع من مكانه، فيتمكن الهواء من طرده إلى الخارج. أما الخاء اللغوية فلا حاجة بنا فى نطقها إلى كل هذا الجهد والضغط.

٤- يرتبط صوت الخاء اللغوية مع أصوات أخرى من حيث التشابه أو الاختلاف فى المخرج أو الصفة، ومن حيث وروده معها فى كلمات أو عدم وروده. فالخاء شريكة الغين والكاف والقاف الصعيدية فى المخرج، ولكنها شريكة الغين فى الرخاوة، وشريكة الكاف فى الهمس، ولاتقع أصلا من أصول كلمة يجاورها فيها أى واحد من هذه الأصوات، ولكنها تجاور غير هذه الأصوات فى الكلمة. مثل هذا النوع من العلاقات لايوجد بين أية عملية من عمليات تنظيف الحلق وبين أية عملية أخرى.

٥- ومعنى ذلك أن صوت الخاء أحد الأصوات المحددة ذات العلاقات المتشابكة فى

منظمة خاصة، محددة الاستعمال والغاية بواسطة العرف الاجتماعى، ولا كذلك صوت تنظيف الحلق. وارتباط كل صوت لغوى بكل صوت لغوى آخر بعلاقات متشابكة بحيث يتكون من هذه الأصوات جهاز صوتى لغوى ذو استعمال وغاية خاصة هو ما اصطلحنا على أن نسميه مسلكا اجتماعيا ذا نماذج.

والذى قلناه عن أصوات اللغة يمكن نقوله عن صيغها الصرفية وأبوابها النحوية ومفرداتها المعجمية؛ لأن كل واحدة من هذه النواحى الثلاث تكوّن منظمة أو جهازا كالمنظمة الصوتية والجهاز الصوتى الذى تكلمنا عنه. وكما أن اللغة تختار لنفسها من بين الإمكانيات النطقية الكثيرة جدًا عددًا محدودًا من العمليات النطقية تنسج شبكته المحكمة بخيوط من العلاقات التى ترتبط إما بالمخارج وإما بالصفات، تختار اللغة لنفسها كذلك أشكالا معينة من البنية تحكم العلاقات بينها، وتحافظ محافظة واعية جدًا على ألا يكون شكل صرفى عرضة لغموض الدلالة على وظيفته بسبب التشابه الكامل بينه وبين شكل آخر ذى وظيفة مختلفة. وإن اللغة العربية من بين سائر اللغات قد اتخذت لنفسها نماذج صرفية محددة الشكل سمّتها الموازين الصرفية، وربطت بين الميزان الصرفى وبين الصيغة الصرفية ربطا يجعلهما يبدوان فى شكل واحد فى معظم الحالات[1].

ويتكون من مجموع الصيغ وما يلحق بها فى كل لغة نظام صرفى كامل صالح لأن يعبر تعبيرًا تامًا لا غموض فيه عن هذه اللغة. وكل صيغة لابد أن تختلف فى الشكل عن كل صيغة أخرى من هذا النظام، والسبب فى هذه اللاّبدّية أن وظائف الصيغ مختلفة، ومن ثم تقتضى هذه الوظائف صيغا مختلفة لتجنب الغموض فى الدلالة. فلو أن صيغتين متحدتى الشكل اتحادًا تامًا أريد بهما أن تدل كل منهما على معنى يختلف عن معنى الأخرى لتعذر هذا الاختلاف فى الدلالة، وأصبحنا بحاجة ماسة إلى اللجوء إلى وسائل غير صرفية فى تحديد هذه الدلالة. ومن هذه الوسائل معونة السياق كالذى يحدث فى صيغة، فَعْلْ، كَعَدْلْ، إذ تدل أحيانًا على معى المصدر، وأحيانًا أخرى على معنى الصفة المشبهة، ولكن السياق وهو وسيلة نحوية غير صرفية يدخل فى تحديد المعنى الصرفى المراد عند الحاجة. الأصل إذًا أن تدل الصيغة من صيغ المنظمة الصرفية

(١) ارجع إلى الفرق بين الصيغة وبين الميزان الصرفى مناهج البحث فى اللغة ص ١٧٣-١٧٧.

على معناها، أولا بنفسها، وثانيا بسبب الاختلاف بينها وبين الصيغ الأخرى؛ وتلك هى النقطة التى نعتمد فيها على التحديد السلبى للمعنى عن طريق القيم الخلافية، فنقول مثلا إن لصيغة «فاعل» معنى صرفيا معينًا، أما جانبه الإيجابى فيأتى عن طريق شكل الصيغة وكونها كما هى، وأما جانبه السلبى أو «قيمته الخلافية» فهو أنه ليس مفعولا ولا منفعلا، ولا مستفعلا ولا غير ذلك.

وإضافة أدوات الإلحاق إلى هذه الصيغة تجعلها صالحة لأن يتكون منها جدول تصريفى معين، وإن أى جدول تصريفى لصيغة من الصيغ ليدل على موضع معين تحتله هذه الصيغة من المنظمة الصرفية العامة للغة. فالمنظمة الصرفية، كرقعة الشطرنج، والصيغ الصرفية كقطع هذه اللعبة، ولكل قطعة من هذه اللعبة مكانها من الرقعة قبل البدء، وحركة معينة لها حين العمل، ويصدق ذلك أيضًا على أبواب النحو وعلى أصوات اللغة، وعلى كلمات المعجم، إذ إن كل نوع من هذه الأنواع يقع فى نظام خاص لا تتداخل وحداته، لأن التداخل طريق الغموض فى الدلالة على المعنى، والمعنى كما قدمنا هو الهدف الرئيسى لكل الدراسات اللغوية.

ولا يظن ظان أن صيغة «فَاعِلْ» مما يحدد السياق معناه وما إذا كان المقصود بها فعل أمر من «فَاعَلَ» أو أسم فاعل من «فَعَلَ». ذلك لأننا قبل أن نضطر إلى استشارة السياق فى أمرها نملك من الوسائل الصرفية ما يمكن أن يحدد لنا معناها، كأن نلحق بها التنوين فإن لحق كانت اسم فاعل، وإن لم يلحق بها لبنائها على السكون كانت فعل أمر. ومغزى هذا أن المنظمة الصرفية غير مكونة من الصيغ فحسب، وإنما تشتمل كذلك على أدوات الإلحاق، ومن هذه الأدوات التنوين، وقد اتخذناه هنا وسيلة صرفية لتعيين دلالة صيغة صرفية.

وأبواب النحو بدورها تتكون منها منظمة نحوية كاملة صالحة للتعبير أيضًا، وإن كل باب من هذه الأبواب النحوية ليتخذ لنفسه تعبيرًا شكليًا عن نفسه، كأن تعبر عنه حركة معينة، أو حفظ الرتبة أو التوافق فى الحركة أو غير ذلك مما عبرنا عنه فى كتاب مناهج البحث فى اللغة بالترابط فى السياق[1]، وجعلنا من وسائله التماسك والتوافق والتأثير. وإن ارتباط كل باب من هذه الأبواب بتعبير شكلى مما ذكرنا ليرجع

(١) ص ٢٠٣ وما بعدها من ذلك الكتاب.

بنا إلى ما لاحظناه فى الأصوات والصرف من بناء فهم اللغة على الشكل والوظيفة، فالضمة حين تلحق آخر الاسم المعرب مثلا شكل من الأشكال، ووظيفتها هى الدلالة بشكلها هذا على باب الفاعل مثلا، أى أن باب الفاعل هنا هو معنى الضمة. وهذه حجة على من يرى عدم جدوى دراسة الأصوات اللغوية، لأن صوتًا واحدًا من هذه الأصوات يمكن أن يكون له معنى بالغ الخطورة كمعنى الباب من أبواب النحو. والذى يهمنا هنا هو أن المنظمة النحوية لا تقل فى توخيها للنماذج عن المنظمة الصوتية أو الصرفية، لأن كل باب نحوى قد ارتضى لنفسه تعبيرًا شكليًا معينًا يمكن أن يدل عليه، وهكذا تم توزيع منظمة من التعبيرات الشكلية على منظمة من الأبواب النحوية. وكما استطاع الفرد بعد التعارف على تراكيب الأصوات أن يستعمل ما اتفق عليه من هذه التراكيب، وبعد التعارف على الصيغ الصرفية أن يستعمل الصيغ المتعارف عليها، استطاع كذلك أن يستعمل ما تم التعارف عليه من الأبواب النحوية وتعبيراتها الشكلية، أى أن الاستعمال اللغوى مرتبط بالنماذج العرفية فى الصياغة والتركيب، سواء أكان ذلك فى الأصوات أم فى الصرف أم فى النحو. ولا شك أن نظرتنا إلى هذه النماذج هى نظرة إلى معايير حددها العرف والاستعمال. ولابد هنا من التفريق بين الاستعمال وبين المنهج، لأن المنهج يتناول هذه المعايير بوسائله الخاصة فيصفها وصفا علميا، ويصبح المنهج بذلك وصفيا ولو كان الاستعمال معياريا.

إن أى نموذج فى اللغة، سواء أكان نموذجا صوتيا، أم صرفيا، أم نحويا، أم غير ذلك لابد إذًا أن يكون نتيجة تعارف. وهو بوصفه وحدة من وحدات نظام مكون منه ومن غيره من النماذج، لا يمكن أن يكون فرديا. ولقد سبق قولنا إن فى اللغة جانبين أحدهما شخصى والآخر نوعى، أو بعبارة أخرى يرجع أحدهما إلى شخصية الفرد ويرجع الآخر إلى الطابع التنظيمى للغة، أو بعبارة ثالثة يوصف أحدهما بالذاتية والآخر بالموضوعية، أو بعبارة أخيرة أحدهما فردى، والآخر اجتماعى. فأما الجانب النوعى ذى الطابع التنظيمى والموضوعى والاجتماعى، فهو النموذج اللغوى. وإذا أراد

القارئ استزادة فى بيان هذين الجانبين فليرجع إلى التفريق بين اللغة والكلام فى كتابى «مناهج البحث فى اللغة»[1].

وكما يذكرنا هذا النوع من التفريق بين الشخصى والنوعى، ثم بين الذاتى والموضوعى، ثم بين الفردى والاجتماعى بالفرق بين الكلام وبين اللغة، يذكرنا أيضًا بالفرق بين اللهجة وبين اللغة المشتركة. «إن الاصطلاح «لهجة» يتضمن فى الدراسات اللغوية الفنية معنى يختلف عن معناه العادى. فليس ثمة فارق حقيقى فى نظر اللغوى بين اللهجة وبين اللغة التى تربطها صلات بلغة أخرى مهما كانت هذه الصلات ضئيلة. أما فى الاستعمال الاصطلاحى فإن هذا الإصطلاح يقتصر على الدلالة على شكل من أشكال الكلام لا يختلف عن شكل آخر من أشكاله بالدرجة التى تجعله لا يتضح فى أسماع المتكلمين بهذا الشكل الأخير»[2]. وإذا نظرنا إلى هذا الفهم لمعنى اللهجه وجدنا أننا لابد أن نفكر فى الأمور الآتية:

١- إن اللهجة طريقة من طرق الأداء اللغوى يتوخاها المتكلم فى ظل حالة اجتماعية خاصة، وكلنا يعلم المقصود باختلاف اللهجات العربية القديمة، ويدرك الفروق الدقيقة بين اللهجات العربية المعاصرة. لقد كانت اللهجات العربية المحلية فى الجاهلية وفى صدر الإسلام تختلف، إما من ناحية الأصوات وإما من ناحية الصرف وإما من ناحية النحو، أو تختلف فى نواح تخلط بين بعض هذه الأمور أو بين كلها. فكان بعض العرب ينطقون الياء شبيهة بالجيم، وقد سميت لهجتهم بالعجعجة. وكان بعضهم ينطق القاف طبقية شديدة مجهورة كما تنطق اليوم فى صعيد مصر فتشبه صوت (g) فى اللغة الانجليزية، وكان بعضهم يميل الألف فلا ينطقها صريحة، وكان البعض يكسر حرف المضارعة، وبعض يثبت الواو والنون قبل الفاعل المجموع. تلك كلها طرق فى الأداء اللغوى نقرأ عنها فى كتب الأقدمين ونحفظ الشواهد على بعضها، ولم تكن أية واحدة من هذه اللهجات تجرى على غير أسس وأصول مرعية يراعيها المتكلم فى الصوغ القياسى

---

(١) ص ٣٠ - ٥٧.

(٢) E. Sapir, Selected Writiags, p. 83.

حينًا وفى مراعاة المستوى الصوابى حينًا آخر، وهو على شدة مراعاته لها يتكلم دون تفكير فيها ولا وعى بتفصيلها.

وصدق أبو محمد الحسن بن اسحق اليمنى النحوى المعروف بابن أبى عبيد حين قال(١):

لعمرك ما اللحن من شيمتى ... ولا أنا من خطأ ألحن
ولكننى قد عرفت الأنام ... فخاطبت كلا بما يحسن

هذه الأسس وتلك الأصول مجتمعة يحافظ المجتمع عليها كما يحافظ على تقاليده لا يستطيع وصفها كجهاز منظم، ولكنه يتكلم لهجته على أساسها، كما يؤدى طرق سلوكه على أساس من التقاليد التى لا يستطيع أن يصفها كجهاز منظم أيضا. فإذا كانت اللهجة كلاما فاللغة هى الأسس التى تراعى فى النطق باللهجة. اللهجة شكل من أشكال تنفيذ اللغة، واللغة مجموعة من الشروط والقواعد التى تراعى فى إحداث هذا الشكل. وإذا كان طالب الدراسات الإنسانية يلاحظ مسالك الجماعة فيستخرج منها نظام العادات والتقاليد، فإن طالب الدراسات اللغوية يلاحظ الكلام ليستخرج منه نظام اللغة. الكلام واللهجة عمل، واللغة مجموعة من النظم الصالحة للتنفيذ فى صورة الكلام أو اللهجة.

ومن المقبول أن يقال لهجة فلان ويقصد بذلك الطريقة التى يتكلم بها من حيث حركات الجهاز النطقى والعلاقات بين الأصوات ومن حيث الخصائص الصرفية والنحوية فى كلامه، بل حتى من حيث المفردات التى ترد فى هذا الكلام، وينظر إلى كل ذلك باعتباره جاريا فى ظل نظام لغوى عام تعارف عليه المجتمع. ومن المقبول كذلك بالطبع أن يقال: «لهجة القاهرة» على كثرة اللهجات فى القاهرة، وإنما يقال لهجة القاهرة حين تنظر إلى الخصائص المشتركة بين هذه اللهجات حتى تبرر أن تضمها جميعا فى لهجة واحدة فى مقابل لهجة (أسيوط) ولهجة الاسكندرية. وقد ذكرنا أن أسلم الطرق لدراسة اللغة هى أن نستخرجها من اللهجة، وأن أسلم طريقة منهجية لتناول اللهجة بالملاحظة والاستقراء أن تجرى الملاحظة والاستقراء على فرد بعينه، فتكون لهجته نموذجا يستنبط منه نظام اللغة.

---

(١) بغية الوعاة ص ٢١٨.

اللهجة إذًا ظاهرة ديناميكية، واللغة ظاهرة استاتيكية؛ لأن اللهجة تنفيذ واللغة أسس ومن هنا كانت الدراسات التاريخية للغة دراسة لتاريخ اللهجة إن شئت الصواب. فلايعمد الباحث إلى السنة التى تغير فيها نظام اللغة، وإنما يدرس التغير فى تنفيذ هذا النظام حتى يصل عن طريق هذا التغير إلى نظام آخر، وآية ذلك تلك القوانين الصوتية التى شرحناها من قبل؛ وإنما كان ذلك كذلك لأن دراسة التاريخ لابد فى طابعها أن يكون طابعًا ديناميكيا من حيث يتناول التاريخ دراسة التطور. أما اللغة وهى كما قلنا مجموعة من الأسس وأصول الصياغة فهى لا تنطق كاللهجة ولا تسمع اللغة، أو بعبارة أقرب إلى الفهم يسمع الكلام دون اللغة ولا تسمع اللغة نفسها، لأن اللغة ليست إلا مجموع ما فى الأشمونى مثلا، ولا أظن أحدنا ينطق ما فى الأشمونى وإنما يتكلم على ضوئه. وقد قال علماء اللغة «إن اللغة مستودع صامت»[1].

ولكون اللهجة كلاما من جهة، ثم لكون الهدف من الكلام هو التعبير عن المعنى الكامل من جهة أخرى، لابد أن تكون وحدة اللهجة هى الجملة المفيدة إفادة تامة، وقد تكون وظيفة هذه الجملة نقل المعلومات أو الرغبات أو إنشاء موقف اجتماعى ما، أو مجرد استجابة لظرف نفسى أو لبيئة خارجية دون قصد اتصال، وكل هذه الأمور إذا تحققت باعتبارها وظيفة للجملة كانت الجملة مفيدة إفادة تامة. ومغزى هذا أن الغرض من الجملة ليس قاصرا على الاتصال فحسب، وإنما يتعداه إلى أمور أخرى. فالجملة إذًا هى الوحدة التى تتكون اللهجة منها؛ أما الوحدات التى تتكون منها اللغة (أى النظام اللغوى المتعدد الأجهزة) فهى القسم من أقسام كل جهاز من هذه الأجهزة، كالحرف من الجهاز الأبجدى، والصيغة من الجهاز الصرفى، والباب من الجهاز النحوى وهلم جرا.

«وتتوقف الوحدة بين اللهجات اللغوية دائما على الاتصال والاشتراك فى نوع من المعيشة، حيث تتآكل خشونة الاختلاف الذى بين هذه اللهجات. وغالبا ما يكون هذا التآكل من نصيب الخصائص التى يلاحظها الناس أول ما يلاحظون، ويميلون إلى السخرية منها. وربما جاء العون على هذا الاتصال بطرق مختلفة. فربما كان الاتصال

---

(١) كان هذا التعبير كثيرا فى محاضرات فيرث.

ذو النتائج الحاسمة مسببا عن بعض الحروب التى تتسبب فى اختلاط السكان الذين ينتمون إلى أجزاء مختلفة من البلاد، وربما كان مسببا عن شيء أكثر إلتصاقا بطبيعة السلام. ولقد قيل إن إنشاء سوق سنوية فى جبال «روكيز» كان من نتائجة أن أصبحت القبائل الهندية الحمراء من شرق هذه الجبال ومن غربها يفهم بعضها بعضًا بعد أن كانت لاتستطيع التفاهم بسبب اختلاف لهجاتها اختلافا كبيرا»[1].

ومعنى هذا أن السوق التى تم إنشاؤها قد أنتجت مزيجا من اللهجات أصبح كنتيجة التفاعل الكيميائى. وأصبح هذا المزيج لغة مشتركة بين هذه القبائل، برغم الفاصل الجغرافى الجبار، وليس المهم فى اختلاف اللهجات كما يقول يسبرسن هو الفاصل الطبيعى الجغرافى، وإنما هو الفاصل الاجتماعى الاتصالى. وكذلك كانت الحال عند العرب فى الجاهلية: لهجات مختلفة تصل أحيانا إلى درجة انعدام الوضوح المتبادل بين متكلميها على نحو ما كان بين لهجة اليمن وبين لهجات الشمال. وكلنا يعرف قصة العربى الشمالى الذى ذهب إلى أحد التبابعة، وخرج تبع ذات يوم إلى الصحراء ومعه هذا العربى الشمالى، ووقفا على قمة جبل وتحتهما هاوية عميقة جدا، فقال تبع للعربى الشمالى «ثِبْ»، يريد اجلس، فوثب الرجل إلى أسفل الهاوية فلقى حتفه. ولكن هذه اللهجات المختلفة حين التقت فى الأسواق والحج والمجامع الأخرى، وفى الغارات والحروب وأيام العرب والرحلات التجارية تفاعلت كما حدث فى لهجات الهنود الحمر على جانبى جبال «روكيز»، وكانت النتيجة لغة مشتركة هى اللغة العربية الفصحى التى لم تكن لهجة قريش؛ وإنما كانت لغة العرب.

«وليس الدور الذى يلعبه الأدب دورًا صغيرا فى خلق لغة مشتركة عظيمة. ولا يتجه فكرى الآن إلى كتاب عظام بعينهم بقدر ما يتجه إلى الاختلاط الأدبى فى عمومه. ولقد كان من المعتقد اعتقادا عاما فى الماضى أن كل واحدة من اللغات القومية الكبرى قد كوّنها كاتب عظيم معيّن: فالإيطالية مثلا خلقها دانتى، والإنجليزية تشوسر، والألمانية لوثر، والدانيمركية كريستيان بيدرسن. وقد أظهر البحث فيما بعد أن هؤلاء لم يخلقوا الأثر المنسوب إليهم. إذ إن كل واحد منهم بصفة أساسية قد استعمل لغة كانت ملامحها الجوهرية قد تشكلت فعلا فتسلمها هو كاملة. وقد كانت

(1) Jespersen, Momkind. N. & the J., p. 64-7.

عوامل الوحدة تؤدى عملها قبل أن يبدأ هؤلاء فى الكتابة، ولو أنهم لم يخطّوا سطرًا واحدا فلربما بدت الإيطالية والإنجليزية واللغات الأخرى فى كل مقوماتها كما تبدو الآن»[1].

ولقد وجد امرؤ القيس وغيره من شعراء الجاهلية لغة عربية فصحى مشتركة بين القبائل فى الشمال والجنوب، فقال شعره وقالوه بها. ولو لم تكن هذه اللغة الفصحى معروفة فى العرب ما وجدها امرؤ القيس وأصحابه تستحق أن يقال بها الشعر، ولعزفوا عنها إلى لغة غيرها مفهومة، أو إلى لهجاتهم المحلية، لأن أول أهداف الشاعر الواعية هو أن يخاطب الناس بشعره، وقد كانت الرواية قطعة من تركيب الجهاز الثقافى فى البيئة العربية القديمة، ولست أشك فى أن امرأ القيس إذا كان أول مشاهير الشعراء فلن يكون بأى حال أول الشعراء.

ولاشك أن من قبله من الشعراء قد ساهموا فى خلق هذه اللغة الفصحى المشتركة بين العرب، وأن الشكل الأدبى والتركيبى لهذه اللغة قد تطور فى ظل الاستعمال من حالة، حتى وصل إلى أوائل العصر العباسى، وأننا لو أردنا أن نبحث مظاهر هذا التطور، فربما وجدنا من السهل استقصاءها والوقوف عليها.

ولا ينبغى أن يتصور القارئ أن اللغة المشتركة لابد أن تكون مكتوبة. فكما تكون هذه اللغة مكتوبة تكون كذلك مسموعة وكما تكون مسموعة فى صورتها الأدبية تسمع كذلك فى صورتها التخاطبية العادية عند ما يكون المتخاطبان من لهجتين مختلفتين. أما حين يتخاطب أثنان من نفس اللهجة فالأقرب إلى الفهم أن يتكلما لهجتهما المحلية، وفى ضوء هذه الحقائق يمكن أن ننظر فى منهج النحاة القدماء لنقدر الموقف اللغوى المعقد الذى وجدوا أنفسهم فيه طلائع للباحثين، ولم يكن بين أيديهم تجارب من سلفهم تضيف إلى ذكائهم حكمة ولا إلى بصيرتهم رشادا كالذى نجده نحن الآن من تجاربهم ومن صوابهم وخطئهم. وإذا كنا ننقد إنتاجهم الآن فإنما نفعل ذلك ولنا سلاح لم يكن لهم؛ ذلك هو ما يستمتع به اللاحق دائما من الانتفاع بتجارب السابق. وحين بحث النحاة عن سلف ينتفعون بتجاربه وجدوا أمامهم تجارب السُّريان والإغريق التى ترجع فى معظمها إلى إخضاع اللغة للدراسات الفلسفية والمنطقية، ولا

(1) Jespersen, Mamkind, p. 51.

تكتفى بأن تسلط المعايير على الاستعمال بل تسلط المعايير على المنهج، وعلى تقرير الحقائق الناتجة عن البحث اللغوى والتعبير عنها.

واللغة العربية المشتركة المعاصرة ليست لغة الشعر الجاهلى، وليست لغة القرآن والحديث، وإنما هى لغة تشترك مع هاتين فى نواح وتختلف عنهما فى نواح أخرى مهمة. إنها مرحلة لاحقة من مراحل تطور اللغة العربية تمتاز بخصائص معينة فى حياتها. كلتا اللغتين لغة أدب، وكلتاهما تجمع العرب على أداة تعبيرية واحدة، ثم كلتاهما تحيا جنبا إلى جنب مع لهجات محلية مختلفة، وكلتاهما تتأثر فى نطقها وبعض تركيباتها بهذه اللهجات، وتعتبر كلتاهما أقوى الأسس التى تنبنى عليها وحدة الأمة العربية من وجهتى النظر السياسية والاجتماعية. ولكن الفصحى القديمة انتهت بسنة التطور، والفصحى الحديثة تحيا بهذه السنة نفسها. لم يكن للفصحى القديمة من الظروف ما يضعها فى امتحان قاس من التعامل مع اللغات الأجنبية كالذى جربته الفصحى العباسية أو الفصحى فى العصر الحديث. لقد كانت الزيادة فى التعامل مع اللغات الأجنبية فى عصر العباسيين هى التى دفعت النحاة إلى أن يحجّروا المرحلة السابقة من مراحل اللغة، ومن ثم يعلنوا انقضاءها ومنع الاحتجاج بكلام العرب من بعدها عليها، ويستقبلوا مرحلة جديدة من مراحل التطور لهذه اللغة نظروا إليها بالشك والانكار ولكنها كانت تستحق الفخر والإكبار. كان عمل النحاة هذا إذًا اعترافا بانتهاء مرحلة وابتداء مرحلة أخرى من تطور اللغة. ولكنهم لم ينظروا فى تلك المرحلة السابقة ليروا أنها لم تكن مرحلة واحدة موحدة وإنما كان فى داخلها تدرج وتطور فى الجاهلية والإسلام يبرران اتجاهات منهجية معينة.

كان أعظم مظاهر التطور التى بدت فى هذه الفصحى العباسية أنها توسعت فى التعريب والترجمة والصوغ القياسى والارتجال، ففتحت بذلك باب التأثر باللغات والثقافات المعاصرة، ثم باب التطور بالمجتمع العربى الذى كاد يعيش حتى هذه اللحظة حبيس العزلة الثقافية. أما حركة الترجمة على الخصوص فقد أمدت العرب بمعظم النتاج العقلى الإغريقى والهلينى على السواء، «والنتيجة الهامة أن العمل فى الترجمة العملية قد بدأ فى عهد هارون الرشيد بتشجيع من الوزير جعفر بن برمك، وأن هذه الترجمة عنيت فى البداية بمؤلفات الرياضة والفلك، وقد ترجم هذه المؤلفات علماء من

«مرو» المدينة التى جاء منها جعفر. وربما بدأت ترجمة المؤلفات الطبية بعد ذلك بقليل، وإنها كانت على صلة بجبريل الثانى، ويبدو أنه كان ثمة عدد من المترجمين الآخرين الذين لاصلة بينهم وبين هذه المجموعة نصف الرسمية التى تجمعت فى البلاط. وقد جاءت الترجمات الطبية من نسخ بالسريانية أولا. وكذلك كانت الحال مع بعض مادة الرياضة والفلك على الأقل»[1]. أما ترجمة المنطق والفلسفة والرياضيات بوجه خاص فلم تؤثر على المفردات فحسب، وإنما تعدت ذلك إلى التأثير فى طريقة تركيب الجملة فى نصوص الكتب المترجمة ويبدو الفرق واضحا بين الأدب الجاهلى والإسلامى وبينهما وبين العباسى. وإن كتب تاريخ الأدب لتفصّل لك مظاهر الاختلاف بين هذه المراحل الثلاث، فى الوقت الذى يخفق فيه النحاة فى إدراك ما يشبه هذه المراحل فى اللغة.

وإنا لنجد هذا التوسع فى التعريب والترجمة والصوغ القياسى يسود الاستعمال اللغوى فى أيامنا هذه مع اختلاف فى المادة التى يجرى تعريبها أو ترجمتها أو صوغها أو ارتجالها عما كانت عليه فى العصر العباسى؛ فقد كان العباسيون شديدى الاهتمام بالثقافة الهلينية، ولكننا الآن لانستطيع التخلى عن متابعة الحضارة العالمية، والثقافة عنصر من عناصرها.

وإن المجمع اللغوى لكثرة استجابته (المعيارية بالطبع) لمقتضيات الصوغ القياسى والارتجال ليلقى بعض النقد من العامة الذين لايدركون طبيعة اهتمام المجمع وحاجات المجتمع والاستعمال اللغوى. والذى نريد أن ننبه إليه هنا أن كل جلسة من جلسات المجمع تضيف قدرا من الحركة إلى تطور معايير الفصحى المعاصرة، وإلى البعد بها عن الفصحى الجاهلية أو الإسلامية أو العباسية أو حتى المملوكية. ولست أحب شيئا كما أحب أن أراقب أحد الغيورين على لغة القرآن من أعضاء المجمع وهو يفطن إلى هذه الحقيقة لأول مرة. تلك الحقيقة هى أنه يساهم طوعا واختيارا فى عمل نتيجته أن يبتعد باللغة الفصحى عن أن تكون هى لغة القرآن.

إلى هذا الحد نستطيع أن نرى الخطأ المنهجى فى التفكير فى دراسة لغة عربية ذات مرحلة واحدة، أو بعبارة أوضح ذات صورة لم تتغير منذ الجاهلية إلى الوقت الحاضر.

---

(١) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب تأليف أوليرى وترجمة المؤلف إلى العربية ص ٢٤١.

مثل هذا التفكير لابد أن يقود إلى المعيارية؛ لأنه سيحتم فرض قاعدة مرحلة على مثال من مرحلة أخرى، أى فرض قاعدة مشتقة من نص جاهلى مثلا على مثل من شعر إيليا أبو ماضى - وكم فى شعر إيليا وأمثاله من قواعد لايقبلها إلا الاستعمال الشعرى الحديث. وإن مرحلة أكثر تقدما من إيليا ليمكن أن نلحظها فى الاتجاهات الحديثة جدا فى الشعر، تلك الاتجاهات لم تنجح إلى الآن فى تكوين ذوق لها فى نفوس المجتمع، ولا اعترافا بها فى قواعد اللغة.

خلاصة القول أن اللغة مسلك اجتماعى يقع فى نماذج تركيبية معينة، ومجموع كل طائفة من النماذج المتجانسة يكون جهازا لغويا معينا، وإن المنظمة اللغوية لأية لغة لتتكون من مجموعة من الأجهزة المركبه من نماذج، ومن هذه الأجهزة الجهاز الصوتى والصرفى والنحوى والمعجمى. ولكل جهاز من هذه الأجهزة أصول فى تناوله ودراسته وهذه الأصول تسمى المنهج. وقد وضحت طائفة من مناهج الدراسات اللغوية فى كتابى مناهج البحث فى اللغة: وإن مناهج دراسة هذه النماذج تقوم على أساس الملاحظة والاستقراء ثم الوصف، وقد أصبحت الاتجاهات فى دراسة اللغة فى أيامنا هذه كلها اتجاهات وصفية وأخيرا يمكننا أن نلخص موضوع الوصفية والمعيارية فى الخلاصة التالية: الوصفية وسيلة البحث والمعيارية وسيلة الاستعمال والتعليم.

والله ولى التوفيق.